

صفحات من «كرنفال البطاطا» لمحمد أبو معتوق

هذه صفحات من قصة قصيرة منع توزيع عدد لوتس التي نشرت فيه بسببها (راجع شهادة أبو معتوق السابقة). وقد فازت بالجائزة الأولى في مسابقة المجلة المذكورة.

[...]

الحزب السياسي لا يخضع للتعقيدات التي يخضع لها محتجزو جرائم الحق العام. وبما أن السجن المركزي مليون على آخره، فقد اضطرت الحكومة لإشغال الغرف الضيقة في المخافر. والإنسان المحتجز والممنوع من الحرية يضيق بروحه، فكيف لا يضيق بسواه، خاصة وأن الشباب المحتجزين أصحاب ملل ونحل وأفكار متضاربة لا يجتمع بينها سوى ما يجتمع بين الحكومة والديموقراطية؟!

في أول الحجز انصرف محيي الدين وقمر الدين البركات، المتشددان الأصوليان، للصلوات، فعسى - قال محيي الدين لأخيه قمر الدين - تخرّ صاعقة من السماء على باب السجن أو رئيس المخفر فينشق الجدار ويأتي الفرج! وبعد أن انتهيا معاً من الصلوات والتسليم غادرهما الإحساسُ بالسلام والأمن، وشعرا نحو أقرانهم بالانتباه والمزاورة. فلقد أوقفت الصلوات والدعوات سيول الكلام أمدًا طويلاً، والسجناء دون كلام أكثر وحشةً منهم من دون طعام. لذلك بدأ كل واحد منهم يرتب لغيره هجومًا يعينه على الحياة والاحتمال؛ فهو إن لم يتّجّع في كسب جولة لصالحه فهو ضامن الخروج بالكلام من صمته وعزلته.

- تقبل الله، قال الحاج ديبو المكاسي.

- ولماذا لم تصل معنا يا حاج؟ ردّ محيي الدين.

- الدمّل يا ولدي يمتعني من السجود والقيام.

- ولكنه لم يمتعك عندما أوصلت الحكومة إلى بيوتنا؟

- لذلك أكرمتني الحكومة ووضعتني في الحجز.

- هذا أمر آخر يا حاج، فلا تخلط عباسًا بدباس.

- اتركني يا ولدي في حالي، تكفيني الحكومة وهذا الدمّل.

- ومن المنتقم الجبار من يكفيك، تابع قمر الدين البركات الكلام.

- استغفر الله العظيم على هذه الورطة.

- اتركا الحاج في حاله. ربما قال في نفسه: السجن للرجال، قال زاهر الهبروي مازحًا.

- ما قلتُ في نفسي مثل هذا الكلام، أجب الحاج. ولكن عسى أن يجعلكم السجن تحبون الحارة أكثر.

- تريد أن تعلمنا كيف نحب الحارة يا حاج؟ صاح قمر الدين البركات.

هكذا، دون مقدمات ولا بطيخ، نفرت الدموع من عيني الحاج وتهاطلت على وجهه وذقنه وهو في حالة اندهاش من أفعال عينيه الخائنتين. فانتبه الجميع إلى الحالة الطارئة وانكشمت وجوههم وأعينهم وصمتوا صمتًا جارجًا.

- لا تؤاخذوني، قال الحاج. هذا الدمّل الملعون يضغط على روحي، ولم أرغب أن أموت أمام الحاجة أم الأولاد.

- لا تشغل بالك يا حاج، ردّ عادل الشرم. أنت مثل الدنيا.

ثم ساد صمت، قاطعه أحد رجال الشرطة من القائمين على حراسة غرفة الحجز وتأمين الخدمات للسجناء، ففتح الباب وأدخل سطلاً مملوءاً بالبطاطا المسلوقة. وعندما طالب السجناء بالملح والشاي، قال لهم الحارس: «في الغد سأحضر لكم الملح من بيتي.» فاطمأن الجميع إلى هذا الجواب، وحمل كل واحد منهم حبةً من البطاطا، وضربها على الباب والجدار، فانهرست وتساقطت على الأرض وتركت مكان الضربة علامةً رطبة. ثم أصاب الجميع حنيناً إلى العمل السياسي والتظاهرات، فشنّوا حملةً من الهتافات ضدّ الحكومة وإدارة السجن، وهتفوا بسقوط البطاطا والملح والشاي، وظلّوا على هذه الحال حتى أعياهم الصراخ. وعندما لم يلتفت إليهم أحد تهالكوا على الأرض قرب البطاطا المهروسة من جرّاء الغضب السياسي، فلموها وحملوها وجلسوا يأكلونها بحمبة وامتنان، والحاج ديبو المكانسي ينظر إليهم من وراء دمه وإشراكهم الغصّات. وفجأة، وبينما كان محيي الدين البركات يقضم ويبلع، أزاح عن فمه نصف حبة بطاطا ونهض وقال: «اللهم اشهد بأنني قد نذرت لك صوماً، فلن أكل بعد اليوم ممّا تقدمه الحكومة الكافرة، ولن أكلّم من الملحدين أنسياً.» ثم تبعه أخوه قمر الدين في إعلان الإضراب عن الطعام. فتفاقت الأوضاع، وازداد الوضع السياسي في القاوش اضطراباً وتأزّماً. ووجدت بقية الفصائل السياسيّة في موقف آل البركات ما يحرضها على الأكل، فانهالت على البطاطا الساخنة قضمًا وبلعًا، حتى ابتلت من أفرادها العروق، وولدا البركات ينظران إلى السطول التي تدخل وتخرج وقد جفت منهم الأطراف وتبلت الماقي وهم يبسلمون ويحوقلون ويردّون: «اللهم ابتليتنا، فلا تعرّضنا.»

في اليوم الثالث على الصوم، وبعد ثلاثة سطول من البطاطا ومن القضم والبلع من المعارضة اللادينيّة، انقضّ محيي الدين البركات فجأةً على سطل البطاطا فتبعه أخوه قمر الدين دون سؤال ولا كلام، وظلاً في حالة قضم والنهام حتى شبعوا، فحمدا الله على ما أعطى وقسم.

- لو أنكما بقيتما يومين آخرين في حالة إضراب عن الطعام!

- تريدنا أن نموت من الجوع، يا منظوم.

- أريد لكما جنة الخلد. وهي أفضل من جنة البطاطا في الحجز. فلماذا عدتما عن الإضراب؟ تابع زاهر الهبروي.

- عدنا لأننا كنّا على خطأ. الإضراب عن الطعام يُضعف الجسم وقد يؤدي إلى الموت، والموت في مثل هذه الحالة مثل الانتحار: معصية وكفر. وإنني أسأل الله العفو والمغفرة لي ولكم.

- لم أكن أعرف أنّ البطاطا تعلّم الإنسان الفقه، قال فاضل الهبروي من حزب القلعة الحكومي مزامحاً.

- أعتقد أنّ الفقه دخل معهما إلى الحجز قبل دخول سطول البطاطا، ردّ رضوان الدوّارة بجديّة مفتعلة.

وانفجر القاوش بالضحكات. الإلحاح على زجر البطاطا والانفجار المتناوب بالضحك والغضب بين المحتجزين يدفع الحاج ديبو المكانسي إلى التكوّم على دمه وروحه، مثلما تتكوّم الحامل على جنينها في شهرها الأخير، أو مثلما تكوّم المضربان عن الطعام على سطل البطاطا. فلقد تورّم الدمّل الذي يغلق حالبيّه وأصبح يفصل بشساعة بين رأسه وأسفله. وتحول جلده من الصفرة اللامعة إلى الزرقة الخانقة، فعرض على لسانه حتى أدماه وصار يزطم رأسه بالجدار رطماً متناظرةً من مقام الهزج وهو يغني في أنين مكتوم: «ويا أمي لماذا أنجبتني؟»

في اليوم الخامس، دخلت البطاطا إلى الزنزانة كأنّها من جملة السجناء، فأحسّ المحتجزون نحوها بالتضامن، بينما كان رجال الشرطة وإدارة السجن يقتسمون الطعام الذي أحضره أقرباء المحتجزين وأهلهم ويكوّمون الحصص أمامهم ويبدأون في التهامها وهم يؤكّدون أنّ حلب لا تضاهيها أيّة مدينة في صنع الطعام الطيب وفي محبة الأولاد.

تابع رئيسُ المخفر الكلام: «مثل هذا الطعام الطيب يشجّع الناس على معارضة الدولة والدخول إلى السجن، وعلينا أن نَمُنَع المعارضة من تحقيق أهدافها.» قال ذلك بنصف فمه، في وقت كان النصف الثاني يعجن نصفَ قرص من الكبة المقلية. «يَعْنِي واللّه لو ضمنتُ لي الدولة أن أكل مثل هذا الطعام لدخلتُ السجنَ برضاي.» وأدخل نصفَ القرص الثاني الباقي في يده في فمه ولحس أصابعه.

- كلامك يا سيدي يساوي ثقله ذهباً، قال رئيسُ الدورية الرقيب جمعة (الذي ذهب إلى بيوت الموقوفين بيتاً بيتاً وأحضرهم عدداً ونقداً). البطاطا ستعلمهم ما يُعجز عنه الاعتقالُ والحجز.
- وماذا ستعلمهم البطاطا؟ تساءل رئيسُ المخفر مستفهماً.

- بعد أيام من أكل البطاطا يا سيدي، ستتصمخ أمعائهم، ويصابون بالكتام، ويَعجزون عن الخروج، فنتصدّع رؤوسهم، وتتلبّل أفكارهم. ويشكلون حزباً لمعارضة البطاطا وتأييد الحكومة، وتفضل يا سيدي هذه المحشية. خلال هذا الحوار الهادئ الدسم، وصلتُ أصواتُ الشتائم والضربات العنيفة من غرفة الحجز الوحيدة، فقطعتُ على المتحاورين الطعامَ والكلامَ، وبدأوا بالإصغاء والانتباه. حاول الرقيب جمعة النهوض ليتبين ما جرى، فطلب منه رئيسُ المخفر تجاهلَ الأمر ومتابعةَ الأكل والحوار.

- دعهم لما أرادوا، قال رئيسُ المخفر. إنهم يعاقبون بعضهم. أحزابهم متصارعة، وأفكارهم متضاربة، ومن الضروري أن يحركوا أذرعهم وأجسادهم بالضرب حتى تتحرك البطاطا في أمعائهم. الذي جرى وصار في قاووش الحجز كان ضرورياً. فبعد أن التهم المحتجزون الكرام سطلاً من البطاطا المسلوقة، وبينما هم في حالة تقشير وتفكير، انتابهم الحنين إلى الكلام والحوار، فتبادلوا الكلمات واللزمات. وكانت البداية على هذا النحو:

- لا بد لنا من الوحدة.

- الذي يُنقّصنا التوحيدُ والسيرُ على طريق السلف الصالح.

- الوحدة عمل خطر، ويجب أن نحذر منها.

- أين تكمن خطورتها؟

- الوحدة توقظ النوايا الخبيثة للبرجوازية العفنة.

- آية بورجوازية وهي لم تولد بعد؟

- ستولد في أحشاء الوحدة.

- أنتم عملاء لموسكو.

- أنتم عملاء لأميركا.

فيا لهم من أولاد، ويا له من حوار، كل واحد في الحجز يُنجز ولادةً تخصّه وموتاً يخصّ سواه. والحاج ديبو داخلٌ في التذكّر والمتابعة، ورأسه إلى الجدار، وعند جالبه زوابع من الحنين والضرب المضّ. لذلك عندما تَرَجُّه الصرخاتُ، يتكوّم على نفسه محاولاً أن يُلصق ركبتيه بذقنه مثل جنين، فيحول الدمك بينه وبين روحه. عندما يركض وحيداً إلى فلاة طفولته، وحيداً، حتى يتلاشى ويذوب. لذا تداهمه أمّه وذكريات الحارة أقسى من مدهمات الحكومة، وأمرٌ وأعتى من حوارات أولاد الحارة الذين لا يَعترفون بأبوتّه.

ويا بلداً من الحارات العاتية، لماذا حصل ما حصل؟

بعد فترة من الصمت والمزاورة، حاول أسعد الهبراي أن يعيد الأطراف إلى الحوار، فقال:

- الوحدة التي وضعها حزبنا تلبّي كلّ الحاجات ولها شروط.

- تفضلْ وحدتنا عن الشروط.

- هذه الوحدة يجب أن تكون ضدّ الإقطاع والبورجوازية والرجعية والمرض والتخلف والجهل والتبعيّة والبيروقراطية والاستبداد والأنظمة الملكية.

- يعني بهذه الشروط تقدّمون خدمةً للاستعمار العالمي والإمبريالية.

- لماذا؟

- لأن هذه الوحدة لا يُمكن أن تتم.

- لماذا لا يُمكن؟

- لأنه لم يبقَ أحد إلا ووضعتموه في قائمة الأعداء.

- يعني؟

- يعني مع الحكومة الحق في اعتقالكم، لأنكم أعداء للوحدة ولستم دعاة لها.

- أنت غبي.

- أنت حمار.

- أنتم متآمرون.

وتدخلت البطاطا في الحوار، فانهرست عدة حبات منها على عدد من الوجوه. ثم تدخلت القبضات، وانهاه كل واحد على الآخر بيديه ورجليه يريد الإجهارَ عليه، وتعالى الصراخُ والصفعاتُ والرفساتُ. كان التنسيق بين الفرقِ السياسية المتصارعة واضحاً، لذلك برز العمل العائلي المشترك كمحتوى عميق للوعي السياسي.

كان الشقيقان المتحزبان يتفقان معاً في الكلام والضربات. فبعد أن أعيا الجميع ما لاقوه من بعضهم من هجوم ونزق، ترنحوا وتهلكوا على حوافي الجدران والأرض. ولحظتها دوى الانفجارُ العظيم.

الحاج ديبو المكانسي، الذي احتمل دمته واحتمله الدمّل، لم يتمكن في ظلّ الحجز والبطاطا والحوارات الساخنة من متابعة الاحتمال، فسعى كلُّ منهما للإطاحة بصاحبه. وحصل الانفجارُ، وامتلاً المخفر بالدوي، فاندھش رئيسُ المخفر واندھشت اللقمة في فمه، فشرق واحتقن وحفظت عيناه، فعاجله حضرة الرقيب بضربتين على ظهره، ثقيلهما رئيسُ المخفر بحسن نية، ثم تابع البلع ومسح عينيه وتساءل عن مصدر الانفجار القريب، ونظر تحت طاولته بعفوية بالغة. ثم رفع رأسه، فتقاطعت أفكاره ونظراته مع نظرات الرقيب، فخرجت من فميهما برهة التقاطع كلمة واحدة: «إنه الدمّل». وهرعا معاً إلى غرفة الحجز.

حاولوا أن تتخيلوا، بالتصوير السينمائي البطيء، كيف يتفجر الدمّل الكبير المملوء بالكلام والأسى والقيح. لقد حصل الانفجارُ بقوة وبطريقة مفاجئة، فتطايرت الأشياء اللزجة والعتاب إلى الوجوه، وتوقف المتعاركون عن المتابعة، والتفتوا إلى جهة الصوت دون أن يلتفتوا إلى ما أصاب وجوههم.

كان الحاج ديبو المكانسي يُنتظر حدوث الانفجار ويستعجله، وقد أسّهم الشبابُ العقائديون بحواراتهم المتواترة ومعاركهم الشّابة في تسريع وتيرة الغليان الذي ينتاب الدمّل الكبير وشيخ الحارة الجليل. فعندما حصل الانفجار غادرت المخاوفُ وجه الرجل المصاب، وتنفس نفسين عميقين ونظر بمحبة إلى الأولاد المتصارعين، وقال جملته الأخيرة: «ليتني أستطيع أن ألعب معكم يا أولاد». ثم أغفى دون سجن، ودون حارة، ودون زوجة خائفة.

عندها انتبه الأولاد إلى أجسادهم المشدودة وقبضاتهم المغلقة، وداخلهم سلامٌ غريب، فتذكروا الرجل وكلامه ودمّته، وتذكروا الحارة والأهل، فتراجعت أجسادهم إلى الجدران، وانسدلت على الأرض مثل رايات خائبة، وتساقطت رؤوسهم بين ركبهم من وطأة البكاء العميق.

وكان في السجن حزن، وفي الحارة، وعلى الناس.

عندما وصل الخبر إلى الحارة، نهض الجميع في هيئة رجل واحد. وعندما وصلوا إلى المخفر قيل لهم إنّ الجثة في الطبابة الشرعية، فهُرعت الحشود إلى هناك. وفي الطبابة أخبرهم الطبيب المناوب أنّ الجثة أرسلت إلى مستشفى الرازي بسبب تعطل البراد ونفاد الجليد، وفي مستشفى الرازي ستُحفظ وسيستفاد منها في الدروس التطبيقية لتلاميذ كلية الطب. وعندما تساءل الجميع «ما العمل؟» قال الطبيب الشرعي: «سأعطيكم ورقة لاستلام الجثة، وإن كنت أفضل أن تتبرعوا بها لإدارة المستشفى من أجل تطوير البحث العلمي». فصرخ به أحد الموجودين: «بلا بحث علمي بلا خ... نريد شيخ الحارة لندفنه في تربة الحارة.»

زأر الجميع: «حارتنا لا تنام بدون أولادها.» وانتزعوا الورقة من يده المستغربة، وتراكضوا عاتبين [...]

حلب